ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

انشغالات السلطان أبو الحسن وأبو عنان في النصف الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي العمل على ضم المغرب الأوسط والأدنى للسلطة المرينية

د. محمد امراني علوي

أستاذ التاريخ الوسيط الإسلامي

الكلية المتعددة التخصصات

الرشيدية – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تعتبر مرحلة حكم السلطانيين أبو الحسن وأبو عنان من المراحل القوية في تاريخ الدولة المرينية، فبعد ما تم توطيد أركان الدولة المرينية داخليًا وتم توحيد المغرب الأقصى مجاليًا حاول السلطانين إعادة أمجاد الدولة المغربية كما كانت عليه في العهد المرابطي والموحدي خصوصًا محاولة الوصول إلى كل المجالات الجغرافية التي كانت تحت سيطرتهم على مستوى الجهة الشرقية أو الشمال، لذلك نجدهم حاولا التوجه شمالاً بجعل الأندلس إحدى أقاليم الدولة المرينية، وقد عرفت خلال هذه الفترة عدة معارك ومواجهات بين الطرفين، جعلت السلطان أبو الحسن يولي اهتمامه نحو الشرق لضم المغرب الأدنى والأوسط، لكن الأحداث التي عرفتها هذه الفترة جعلت أبو عنان يستولي على السلطة في المغرب الأقصى محاولاً توطيد أركان المغرب الأقصى تحت سلطته ن ليدخل في مواجهة مباشرة مع أبيه أبو الحسن، وبعد موت هذا الأخير نهج السياسة السابقة نفسها محاولاً هو كذلك ضم المغربين الأدنى والأوسط، وقد تخللت هذه المرحلة عدة أحداث وقضايا كان لها الدور الكبير في صناعة أحداث المغرب الأقصى بل الغرب الإسلامي، خلال عهدي السلطانيين أبي الحسن وأبي عنان.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٠ أكتوبر ٢٠١٣

تاريخ قبول النشر: ١٦ فبراير ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الأندلس، المغرب الأوسط، المغرب الأدنى، السلطان أبو الحسن، السلطان أبو عنان

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041876

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد امراني علوي. "انشغالات السلطان أبو الحسن وأبو عنان في النصف الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي: العمل على ضم المغرب الأوسط والأدنى للسلطة المرينية".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص١١٤-١١٨.

مُقَدِّمَةٌ

تُعدّ مرحلة أبي الحسن وكذا أبي عنان فترة ازدهار الدولة المرينية، ذلك أن الأول وصل إلى الحكم عام 731هـ بعد مهلك أبيه سعيد عثمان[١] وتولى الثاني الحكم بشكل نهائي بعد موت أبيه في ٧٥٢هـ، وقد ورث السلطانان وضعًا مستقرًا نتيجة المجهودات التي بذلها أبوسعيد عثمان في القضاء على حركة ابنه أبي على في سجلماسة والعزفيين بسبة فبلغت الدولة قوة عسكرية جعلت غرناطة تستنجد بها لما احتل فرناندوا الرابع جبل طارق كما فعل نفس الشيء أبوبكر بن يحي الحفصي[٢] عندما هده صاحب تلمسان أبو تاشفين بن زيان وكانت نتيجة استجابة المرنيين أن حدثت المصاهرة بين الحفصيين وأبي الحسن وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله "وزفت إليه ليلة إذ عروسه بنت مولانا السلطان أبي يحي".[٣] وعمل السلطان أبو الحسن وأبو عنان على توسيع النفوذ المريني في المغرب الأوسط والأدنى والأندلس فقادا حملات عسكرية اختلفت نتائجها، ونظرا لطبيعة المداخلة التي تفرض الحديث عن انشغالات الملكين فإننا سنعمل على تتبع انشغالات كل واحد منهما على حدة مع تبيان أوجه التشابه والاختلاف. ونشير إلى أن حديثنا سيقتصر على الجوانب السياسية باعتبار ها أساس حركية الأحداث في هذه المرحلة.

أولاً: انشغالات أبي الحسن سياسيًا

١/١- في الشرق:

لما بويع أبو الحسن وقبل أن يتجه إلى منازلة أمير تلمسان انتقامًا لصهره عرج على سجلماسة لمعرفة أحوال أخيه بها وهذا ما أكده ابن خلدون بقوله: "فأراد مشارفة أحواله قبل النهوض إلى تلمسان، فأرتحل من معسكره بالزيتون قاصدًا سجلماسة، وتلقته في طريقه وفود الأمير أبي علي أخيه مؤديًا حقه وموجبًا مبرته مهنيًا بما أتاه الله من ملك، متجافيًا عن المنازعة فيه قانعًا من تراث أبيه فيما حصل في يده طالبًا العقد له بذلك من أخيه، فأجابه السلطان أبو الحسن إلى ما سأل، وعقد له على سجلماسة وما إليها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيهما، وشهد الملأ من القبيل وسائر زناته والعرب وانكفأ راجعًا إلى تلمسان.[٤]

وتشير المصادر إلى أن أبا الحسن اتجه بجيوشه شرق تلمسان في انتظار قدوم صهره غير أنه أخبر بانتقاض أخيه عليه في سجلماسة بفعل اتفاقه مع أبي تشافين الزياني مما عجل بعودته إلى الحضرة (فاس) ومنها إلى سجلماسة التي حوصرت مدة سنة كاملة انتهت بدخولها وإلقاء القبض على أبي علي سنة ٧٣٤هـ إذ لم تجده مساعدات أبي تاشفين الزياني وسيق إلى فاس ليموت في سجنه، وبهذا استقام ملك المغرب للسلطان الذي انتصر أيضا على النصارى في جبل الفتح فتوجه مرة ثانية إلى تلمسان، حيث فتح في طريقه إليها وجدة وندرومة كما يظهر ذلك من نص ابن خلدون "وسار يجر الشوك والمدد من أمم المغرب وجنوده ومر بوجدة فجمر الكتائب لحصارها ثم مر بندرومه فقاتلها بعض يوم واقتحمها فقتل حاميتها واستولى عليها أخر سنة خمس (٧٣٥هـ) ثم سار على تعبئته حتى أناخ على تلمسان".[٥] والواقع أن هذه المدينة قاومت المرنيين بشدة رغم حشودهم العسكرية الكثيرة واستعمالهم لبعض الأدوات الحربية مثل المجانيق والخانديق، ودام حصارها سنتين تمكن خلالها أبو الحسن من فتح مدن وهران وهنين وملیانة وتنس والجزائر سنة ٧٣٦هـ وما يقع شرقها كما اختط مدينة المنصورة لتكون مقرًا لسكناه، ليأتي٢٧ رمضان من سنة ٧٣٧هـ حيث اقتحم تلمسان عنوة[٦] وقضى على أميرها الذي استبسل في الدفاع عنها.

ونترك مؤقتًا الحديث عن الأندلس لنواصل رصد أحداث المغرب الأدنى، ذلك أن وفاة أبي بكر بن يحي الحفصي ملك تونس واختلاف أبنائه حول العرش، وسطوة عمر ابنه جعلت وجوه الدولة وعلى رأسهم محمد بن تافراكين يطمعوا أبا الحسن في تملك إفريقية يقول محمود مقديش "وتحرك إلى تونس في صفر سنة ثمان وأربعون وسبعمائة واستولى على مدينة بجاية ثم قسنطينة وقد ظفر بعض حصصه بعمر صاحب الأمر بتونس فارًا عنها، فقتل واهتزت الأرض لطاعة السلطان من الغرب والبلدان وحذر الملوك بمعر ما شاع بسطته وانفساح إيالته وشهرة ذكره... ودخل تونس في حفل لم يسمع بمثله في الثامن من جمادى الآخرة من عام ثمانية وأربعون وسبعمائة"،[٧] وهذا ما ذهب إليه أيضًا صاحب الإستقصا.[٨] واتبع أبو الحسن عند سيطرته على إفريقية سياسة نزع الإقطاعات التي منحها الموحدون للأعراب فعوضهم عنها بأعطيات من الديوان ومنعهم من أخذ الخفارة (الإتاوات) بعدما اشتكت الرعية من البدو مما دفع الأعراب إلى مناهضة المرنيين كما يشير إلى ذلك ابن خلدون.[٩]

وقد أسفرت المواجهة بين الطرفين والتي وقعت بين بسيط تونس وبسيط القيروان عن انهزام المرنيين نتيجة غدر بني عبد الواد ومغراوة وبني توجين لمولاتهم للأعراب الهلاليين مما دفع بالسلطان إلى العودة إلى القيروان في فاتح ٧٤٦هـ لينتقل إلى تونس في ربيع الأخر في السنة نفسها حيث حصن المدينة، وأثناء إقامته بتونس تراوحت مواقف الأعراب منه بين التأييد والمعارضة وانقطعت أخباره عن المغرب الأقصى في وقت عم الوباء العظيم المشرق والمغرب واستبد ابنه أبو عنان الذي عينه واليًا على تلمسان بعد توجهه إلى إفريقية بالحكم دون سائر إخوته [١٠] وقفل أبو الحسن عائدًا إلى المغرب الأقصى ممتطيًا البحر فحاول التزود بالماء في بجاية إلا أن واليها الحفصي منعه وجيشه من ذلك، فتمكن في النهاية من التزود، غير أن عاصفة دمرت مراكبهم في البحر فهلك الكثير من العلماء والأعيان والشرفاء إل جفنا أقل السلطان الذي كان على مشارف الموت قرب بلاد رواوة وقذف به في الجزائر التي "تمسكت بطاعته فاستنشق بها ريح الحياة وأقام الرسم"[١١] وفيها التف حوله بعض العرب فكون جيشا اتجه به نحو تلمسان حيث انهزم وقتل ابنه الناصر الذي التحق به من بسكرة. وقد دفعه هذا إلى التفكير في العودة إلى المغرب مقر ملكه فوصل سجلماسة التي استقبلته بالترحاب والطاعة سنة ٧٥١هـ.غير أن ابنه أبا عنان علم بذلك فجهز جيشًا قويًا لمواجهة أبيه الذي أيقن بعدم قدرته على التصدي لابنه وقصد مراكش التي استقبله أهلها بالطاعة فكون جيشًا حاول به استرجاع ملكه في حين اتجه إليه أبو عنان من فاس ودارت بينهما معركة بتامدغوست في سنة ٧٥١هـ انتهت بانهزام جيوش السلطان أبي الحسن فاعتصم بجبال هنتاتة بدرن الذي حاصره أبو عنان إلى أن توفي أبوه سنة ٧٥٢هـ.

٢/١- في الأندلس:

لم تقتصر انشغالات أبي الحسن المريني على تلمسان وإفريقية، بل كانت متزامنة مع اهتمامه بالأندلس، انطلاقًا من طبعه الجهادي، غير أن الظروف لم تكن مناسبة نظرًا لاحتدام الصراع بين ملك غرناطة أبي عبد الله محمد بن أبي الوليد إسماعيل ومشيخة الغزاة المرنيين الذين استولوا على واد آش والنواحي فهددوا بذلك مملكة غرناطة، وانتهز القشتاليون فرصة

الصراع هذه فسيطروا على البيرة ثغر مملكة غرناطة والإحالة دون وصول الإمدادات المرنية إليها.

ولما أبت الأمور إلى أبي النعيم رضوان النصري في غرناطة حصل التفاهم بينه وبين أبي الحسن المريني ألذي أرسل ابنه أبا مالك بقوة مرينية كبيرة استولت على الجزيرة الخضراء ثم زحف على جبل طارق كما يشير إلى ذلك صاحب الإستقصا بقوله "وعقد لابنه أبي مالك على خمسة ألاف من أنجاد بني مرين وأنفذهم مع بني الأحمر لمنازلة جبل الفتح فاحتل أبو مالك بالجزيرة وتتابعت إليه الأساطيل بالمدد... وزحفوا جميعا إلى الجبل وأحاطوا به وأبلو في منازلة البلاد البلاء الحسن إلى أن فتحوه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واقتحموه المسلمين عنوة".[١٢] وفي هذه السنة نفسها اغتالت مشيخة الغزاة ملك غرناطة محمد بن إسماعيل بن الأحمر الذي خلفه على العرش أخوه أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل وتمكن من القضاء على بني عثمان بن أبي العلاء أصحاب مشيخة الغزاة واستردوا واد آش منهم ولما استتبت لأبي الحسن أمور المغرب أمر ابنه أبا مالك بالتوغل في أراضي الأندلس" وأوعز إلى ابنه الأمير أبي مالك أمير الثغور من عمله من الدعوة سنة أربعين بالدخول إلى دار الحرب. وجهز العساكر من حضرته وأنفذ إليه الوزراء".[١٣]

ومن جبل الفتح نازل طريف التي تمادى في حصارها مما جعل ملكها يستنجد بسلطان البرتغال بينما سارع أبو الحجاج يوسف بن نصر للحاق بأبي مالك والتقت الطائفتان في ظاهر طريف فانهزم المسلمون نظرا لسوء التدبير كما ورد في نص ابن خلدون "...واتصل الخبر بأن النصارى جمعوا له (أبا مالك) وأغذوا السير في أتباعه وأشار عليه الملأ بالخروج عن أرضهم وإجازة الوادي الذي كان تخما بين أرض الإسلام ودار الحرب وأن يسير إلى مدن المسلمين ويمتنع بها فلج في إبايته وصمم على التعريس، وكان قدما ثبتا إلا أنه كان غير بصير بالحروب لمكان سنه. فصبحتهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل أن يستركبوا وخلطوهم في أبياتهم وأدرك الأمير أبو مالك قبل أن يستوي على فرسه فجدلوه واستلحموا الكثير من قومه واحتووا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين ورجعوا على أعقابهم واتصل الخبر للسلطان فتفجع لمهلك أبيه واسترحم له".[١٤]

بعد هذه الفاجعة عمل أبو الحسن على الثأر من نصارى الأندلس، ففتح ديوان العطاء وأمر بتجهيز الأسطول المريني كما طلب من أصهاره الموحدين أن يمدوه بأسطولهم الذي تألف من أساطيل طرابلس، وقابس، وبونة وبجاية مما كون لديه أسطولا ضخما وصل إلى (١٠٠) وحدة وعقد عليها لمحمد بن علي العزفي صاحب سبة وأمره بمناجزة أسطول النصارى الذي تمركز في الزقاق لمنع السلطان من الإجازة إلى الأندلس فالتقى الجمعان وانتهى الأمر بانهزام النصارى كما يؤكد الناصري"... حتى هبت ريح النصر وأظفر الله المسلمين بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم وإستلحموهم قهرا بالسيوف وطعنا بالرماح وألقوا أشلائهم في اليم وقتلوا قائدهم... واستاقوا أساطيلهم مجذوبة إلى مرسى سبة... وكان ذلك يوم السبت السادس شوال سنة أربعين وسبعمائة".[١٥] ونزل السلطان بساحة طريف بعد انتصاره على النصارى أواخر سنة ٧٤٠هـ فحاصرها وأنزل بها أنواع القتال بعد انضمام جيوش أبي الحجاج يوسف ابن إسماعيل بن الأحمر إليه غير أن الطاغية جهز أسطولاً وسيطر به على الزقاق فقطع الإمدادات على جيوش المرنيين الذين نفذت أقواتهم مع طول الحصار إضافة إلى بث مجموعة من جنوده في صفوف معسكر بني مرين لضربهم من الخلف إلى جانب تدعيمه من قبل البرتغاليين. وكانت النتيجة هي انهزام المسلمين وثأر النصارى في مدة وجيزة، ليتجه أبو الحسن لتوه إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى جبل الفتح ليصل إلى سبة كما ورد عند ابن خلدون.[١٦]

ونتج عن هذا الانتصار النصراني استئساد الطاغية القشتالي على مسلمي الأندلس ورغبة في ضم أراضيهم إليه فاستولى على قلعة بني سعيد ثغر غرناطة سنة ٧٤٢هـ بينما حاول السلطان أبو الحسن رد الاعتبار فدعا وزراءه إلى جمع الجنود وتجهيز الأساطيل وقدم إلى سبتة لتسيرها بنفسه من هناك. وعند وصول خبر ذلك إلى الملك القشتالي جهز أسطوله واتجه به إلى بحر الزقاق حيث واجه أسطول المسلمين الذي كان يقوده عسكر بن تاحضريت الذي انهزم وحوصرت الجزيرة الخضراء أشد حصار انتهى بها إلى الإذعان لملك قشتالة كما يصف نص الناصري "واشتد عليهم (أهل الجزيرة) الحصار وأصابهم الجهد... وضاقت أحوال أهل الجزيرة ومَنْ كان بها من عسكر السلطان. فسألوا الطاغية الأمان على أن ينزلوا له عن البلد فبذ له لهم وخرجوا فوضى لهم وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاثة وأربعين وسبعمائة... وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة له على تقصيره في المدافعة مع تمكنه منها".[١٧] ويلاحظ أن هذه أخر محطات انشغاله بالأندلس ونقل اهتمامه إلى تلمسان كما سلف الذكر.

وكانت عناية أبي الحسن المرني إلى جانب نشاطه السياسي، بالعمران والثقافة فائقة إذ بنى مدارس منها المدرسة العظمى بمراكش وسلا والمدرسة المصباحية بفاس. ومن أثاره في مكناس الزيتون الزاويتان القديمة والجديدة. أما ما يتعلق بالمجال الديني، فقد اهتم بإرسال بعثات الحجيج إلى المشرق، وكتب ثلاثة مصاحف بيده أوقفها على مكة والمدينة وبيت المقدس. إضافة إلى إيقافه ضياعًا على القراء في مكة.

من خلال ما سبق يتضح؛ أن حياة أبي الحسن كانت مأساة طويلة وفريدة. في بابها كما ذهب إلى ذلك حسن مؤنس[١٨] نظرًا

لما عاشه من صراع مع أبي علي الذي استقل بسجلماسة وابنه أبي عنان الذي استبد بالحكم. إلى جانب ثورة القبائل الهلالية ووباء الطاعون الذي عم البلاد إضافة إلى هزائمه في الأندلس. كل هذا أدى إلى نهاية حكمه رغم ما تميز به من قوة الشكيمة تبعا لما قاله ابن مرزوق في كتابه: "المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن" من" أن إجهاد النفس كان لذته وسروره، وكان رجلاً بالغ التقى، يحفظ نصف القران ويقضي جانبًا كبيرًا من وقته في القيام بفرائضه الدينية وما يتبعها من أعمال العبادات والورع وكان في حاشية قصره عدد كبير من المتدينين الذين يصاحبونه فيما كان يقوم به عبادات"[١٩].

ثانيًا: انشغالات أبي عنان

(٧٤٩-٧٥٩هـ/ ١٣٤٨-١٣٥٨م)

سبقت الإشارة إلى؛ أن أبا عنان استبد بالحكم عند سماع موت أبيه وهو في تلمسان. فاتجه نحو فاس مركز الدولة وتمكن بعد مواجهة منصور بن أبا مالك الثائر بها. من دخولها حيث تلقى فروض الولاء والطاعة من سكانها وذلك سنة ٧٤٩هـ وكان لأبناء أبي العلاء في اقتحام المدينة واعتقال منصور وقتله. ولما تبين له أن موت أبيه كان من قبيل الإشاعة فقط رأى أن يساند ملوك الحفصيين في المغرب الأدنى ليقفوا سدًا مانعًا بينه وبين أبيه كما لم يمانع استرداد بني عبد الواد لسلطانهم على المغرب الأوسط حتى يأمن جانبهم ولو لوقت. وبقي الصراع محتد ما بينه وبين أبيه إلى أن توفي هذا الأخير سنة ٧٥٢هـ. ويستفاد من إشارة عبد الله العروي التوجه الكلي لأبي عنان نحو إفريقية والعزوف عن التفكير في الأندلس"...أن يتم ما بدأه والده (أبو الحسن) على الأقل فيما يخص إفريقية إذ لم يعد أحد ينوي المغامرة في الأندلس."[٢٠]

لقد أفرزت حروب أبي عنان ضد أبيه توسع النفوذ العبد الوادي على أجزاء كبيرة من المغرب الأوسط كما تميزت علاقة بني عبد الواد بالمرينين بالتحول تدريجيًا من الولاء والتبعية إلى الاستقلال السياسي كما يبدوا ذلك من موقف الأمير أبا ثابت أثناء دخوله تنس وامتناعه من إجابة طلب السلطان أبي عنان في شأن المغراوي علي بن راشد وقومه ويشير علي حامد الماحي إلى أن أبا عنان كان يهدف من خلال شفاعته في مغراوة التدخل في شؤون المغرب الأوسط وإثبات نفوذه في المنطقة الشرقية وبالتالي الحد من توسع نفوذ بني عبد الواد فيها.[٢١] ونتيجة لذلك جمع أبو عنان جيوشه واتجه إلى تلمسان فهزم الأمير أبا سعيد وأخاه أبا ثابت ثم قتلهما وصفا له جو تلمسان سنة ٧٥٣هـ ويبين نص ابن الخطيب مراحل المد المريني في اتجاه تونس حيث قال: "وتحرك إلى تلمسان فاستضافها إلى ولايته ثم ألحق بها قسنطينة وبجاية وجهز أسطوله إلى تونس فدخلها وتملكها ثقاته في رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائة".[٢٢]

ونشير هنا إلى أن فتح قسنطينة تم بمساعدة بني المهلهل بعد محاولات عديدة في سنوات ٧٥٣هـ و٧٥٥هـ و٧٥٦هـ و٧٥٧هـ و٧٥٨هـ بينما امتلكت بجاية دون إراقة للدماء إذ تخلى له صاحبها عنها (المولى أبوعبد الله) وعند فتح تونس أحست قبائل رياح وغيرها بخطورة موقف أبي عنان المتمثل في منعها من فرض ضريبة الخفارة على الأهالي والمسافرين. وغيرها من الامتيازات مما جعلها تثور في وجهه وتواجه جيوشه، الشيء الذي اضطر معه السلطان إلى الخروج لتأديبها وإنزال الدمار والخراب بمملكتها وقصورها.[٢٣] وبعد مطاردتها في الصحراء توجه أبو عنان إلى قسنطينة فاستقر بها فترة من الزمن أراد بعدها العودة إلى تونس فاعترض سبيله الخليفة الحفصي الذي غدر به في حفص تبيسة حيث وقع انشقاق في الجيش المريني وانسل جزء منه فاتجه إلى المغرب نظرا لما أصابه من تعب ولطول الرحلة وبعد المسافة عن البلاد والأولاد. فكان أن عاد أبو عنان مضطرا إلى المغرب لتعود تونس إلى الحفصين وانتهت بذلك سيطرة المرينين على جهة الشرقية من الدولة الحفصية. في حين استمر النفوذ المريني في قسنطية وبجاية مدة من الزمن.

ولم تكن الأوضاع في المغرب مستقرة منذ بداية حكم عنان، حيث ثار أبو الفضل الذي أوصلته سفن قشتالة إلى السوس فتقبض عليه صاحب درعة وسلمه إلى السلطان الذي قتله سنة ٧٥٥هـ خنقًا بمحبسه[٢٤] وخرج عن الطاعة أيضًا عيسى بجبل الفتح فنال العقاب نفسه. وبعد عودته من المغرب الأوسط (٧٥٩هـ) إلى فاس ألم به مرض عضال ألزمه الفراش وهذا ما أكده ابن خلدون بقوله: "ولما وصل السلطان إلى دار ملكه احتل بها بين العيد الأكبر حتى إذا قضى الصلاة من يوم الأضحى أدركه المرض وأعجله فائق الوجع عن الجلوس يوم العيد على العادة. فدخل قصره ولزم فراشه واشتد به وأطاف به النساء يمرضنه".[٢٥] وقد توفي على إثر هذا المرض سنة ٧٥٩هـ وإن كانت بعض المصادر تشير إلى قتله خنقا من طرف وزيره حسن بن عمر. ورغم طموحات أبي عنان في تحقيق حلم توحيد المغرب وفشله في ذلك فإنه اهتم أيضًا بجوانب أخرى من الحياة أهمها بناء المدارس والزوايا واستجلاب الأعلام،[٢٦] مثل المدرسة البوعنانية في فاس، والمدرسة العجيبة في حومة باب حسين بسلا والتي تعرف اليوم بفندق أسكور،[٢٧] وكان أبو عنان أيضًا فقيهًا عارفًا بالمنطق وأصول الدين وله حظ وافر في علمي العربية والحساب.

خَاتِمَةٌ

اتحدت أهداف كل من أبي الحسن وأبي عنان في اتجاههما نحو المغربين الأوسط والأدنى في رغبتهما السيطرة على المراكز التجارية النشيطة بهما، نتيجة تحول المسالك التجارية الصحراوية نحو الشرق مع القرن الثامن الهجري. ويبدوا أن هناك عوامل عدة أدت إلى فشل جيوش المرنيين في تحقيق هذا المشروع يأتي على رأسها الأزمة الاقتصادية التي شهدها المغرب الأقصى بسب تراجع دوره في هذه التجارة[٢٨] ويضاف إلى ذلك؛ أن المرنيين لم يتمكنوا من تحصيل الضرائب من جميع السكان باستثناء السهول الساحلية (أزغار، تامسنا، سهل السوس، بعض نواحي وادي سبو).

ومن الناحية السياسية، يفسر فشل المشروع بضعف ترابط المرنيين الزناتيين وكثرة خروجهم عن الدولة وسهولة انضمامهم إلى دعاة الفتن من أمراء البيت أو شيوخ عرب المعقل خاصةً،[٢٩] أما من حيث الحروب التي خاضها أبو الحسن في الأندلس والتي كان داعي الجهاد حافزًا أساسيًا فيها، فإن أسباب الهزيمة، إضافة إلى ما سبق، جاءت نتيجة النضج السياسي الذي عرفته ممالك إسبانيا وثبات مؤسسات الحكم بها. إلى جانب اتحادها في مواجهة الجبهة الإسلامية بقيادة البابوية، بينما كان يستغل بعض الأمراء المسلمين الانشغال في الصراع ضد المسيحيين ليتوسع على حساب الأراضي الإسلامية مما يدل على تشرذمهم. وقد أشار حسين مؤنس إلى عامل أخر له أهميته في قلب موازين القوى هو مستوى تقنيات أدوات القتال وتدريب الجيوش"... فكانت سيوف النصارى ورماحهم ونبالهم أقوى وأمتن وأقدر على الإصابة من أسلحة المسلمين، ثم إنهم أتقنوا صناعة الدروع للفرسان والأفراس معًا. فكان المقاتل النصراني يحتمي بدرع سابغة تجعل إصابته في مقتل أمرًا عسيرًا. في حين كان المسلمون يدخلون المعارك وكل سلاحهم السيوف والدروع والشجاعة وقليل من الخيل وفي غالب الأحيان تكون الدروع من خشب، أو جلد سميك".[٣٠]

الهَوامِشُ:

(١) ابن خلدون: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، طبعة أولى، دار الكتب العلمية، الدار البيضاء، ١٩٩٢، ص ٢٩٩/٧. الناصري: **الإستقصا لإخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، ١٩٩٧ ص ١١٨/٣.

(٢) حسين مؤنس: **تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي**، طبعة أولى، بيروت، ١٩٩٢ ص ٣٨/٣

(٣) ابن خلدون: **العبر**، ٢٩٩/٧

(٤) نفسه، ٣٠٠/٧

(٥) نفسه، ٣٠٤/٧

(٦) الناصري: **الإستقصا**، ١٢٥/٣

(٧) محمود مقديش: **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق علي الزاوي ومحمد محفوظ، طبعة أولى، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٨ ص ١/ ٥٢١

(٨) الناصري: مرجع سابق، ١٥٥/٣ ـ ١٥٦

(٩) ابن خلدون: سابق، ٣٢٠/٧

(١٠) الناصري: سابق، ٣/ ١٦٣ ـ ١٦٤

(١١) مقديش: سابق، ٥٢٨/١

(١٢) الناصري: سابق، ٣/ ١٢١ ـ ١٢٢

(١٣) ابن خلدون: سابق، ٣٠٩/٧

(١٤) نفسه، ٣٠٩/٧

(١٥) الناصري: سابق ٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦

(١٦) ابن خلدون: سابق ٣١٠/٧ ـ ٣١١

(١٧) الناصري: سابق ١٣٧/٣ ـ ١٣٨

(١٨) مؤنس: سابق ٤٠/٢

(١٩) نفسه ٢/ ٤٠ ـ ٤١

(٢٠) عبد الله العروي: **مجمل تاريخ المغرب**، جزء٢، طبعة أولى، المركز الثقافي العربي ١٩٩٤، ص٢٠٣/٢

(٢١) علي حامد الماحي: **المغرب في عهد السلطان أبي عنان المريني**، بدون طبعة، بدون دار الطبع، ١٩٨٦، ص ٨٣

(٢٢) ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق عبد الله عنان، القاهرة، طبعة أولى، ١٩٢٤، ص ٢١/٢

(٢٣) علي حامد الماحي: سابق ١٠٨

(٢٤) ابن خلدون: سابق ٣٥٤/٧ ـ ٣٥٥

(٢٥) نفسه ٣٥٤/٧ ـ ٣٥٥

(٢٦) ابن الخطيب: سابق ٢١/٢

(٢٧) الناصري: سابق ٣/ ٢٠٦

(٢٨) حسن حافظي علوي: **علاقة المغرب الأقصى بمالي من خلال رحلة ابن بطوطة**، المناهل، ٥٣، ١٩٩٦، ص ١٢٥

(٢٩) مؤنس: سابق ٤١

(٣٠) نفسه ٤٥